منهم العنف ومنا العنفوان

زفت إليّ مكالمة تلفونية نبأ يقول ان الشرطة تشن حملة واسعة لاعتقال ديواني الاخير "ويكون ان يأتي طائر الرعد".. ولم اكد اعيد سماعة التلفون الى موضعها حتى بلغني استدعاء من شرطة حيفا.. وكان تحقيق قصير، وابديت رغبتي في تقديم شهادة خطية، وتم ذلك في اقل من ساعة .. وبعد التفتيش في منزلي ومصادرة ما لدي من الديوان بشرتني الشرطة بصدور أمر باعتقالي لمدة يومين، قضيت احدهما في غرفة التوقيف بمركز بوليس حيفا، وحللت في اليوم الثاني ضيفا على سجن الجلمة .. ثم مثلت امام قاضي محكمة الصلح في حيفا، وتم اطلاق سراحي لحين موعد المحاكمة، بكفالة مقدارها الف ليرة اسرائيلية لاغير.

في قاعة المحكمة كان في انتظاري عدد من رفاقي فعلمت منهم ان الصحافة الصهيونية اصدرت حكمها علي .. وحين طلب مني مندوب وكالة "عيتيم" تفسيرا لما حدث لم اخف عنه احتقاري للصحف التافهة التي اقتنصت النبأ وراحت تحرض جماهير قرائها .. وأكد لي انه سينشر ما اقوله بالضبط، وبالفعل نشر ما قلته له بالضبط.

أما صحيفة "معريب" كبرى الصحف الاسرائيلية فقد بزت سواها

من الصحف البورجوازية في الاثارة والنهش.. في اليوم الاول نشرت نبأ مصادرة الديوان على صفحتها الاولى.. في اليوم الثاني نشرت نبأ الاعتقال وتهمة عدم التقيد باوامر الرقابة وتهمة التحريض على التمرد .. وفي اليوم الثالث نشرت نبأ من نوع آخر .. فعلى صفحتها الثانية وبعنوان صارخ كتبت انني قررت مغادرة البلاد نهائيا.. لماذا؟ لانني - على حد زعمها - أرغب في الزواج من فتاة مسلمة من المناطق المحتلة، ولتعذر الامر في اسرائيل فقد قررت الرحيل(!)وانحدرت "معريب" الى درك أسفل حين غزلت بمنوال الطائفية، زاعمة انني اعاني من عداء الدروز والمسلمين في آن واحد ..

لم تكن هذه المرة الاولى التي اتعرض فيها لهجوم من الصحافة الرجعية - وهو امر لا يعيبني قط- ولذا لم يتعد شعوري نحو هذه الحملة الاخيرة حدود الاحتقار.. لكن شيئا اخر حدث فيما بعد ودفعني الى التعقيب على سحابة الرماد.. فقد كتب عاموس كينان، الكاتب العبري المعروف، تعليقا في صحيفة "هآرتس"، دفاعا عن حرية الفكر، ونشرته له الصحيفة بصورة "أعلان". (نشر في "الاتحاد" - الجمعة ٩ ايار).. وعلى الاثر هرعت جماعة من الشوفينيين للتحريض عليه وعلي، في محاولة مستميتة لاسكات هذا الصوت الذي انفجر فجأة ليقول: انااحتج! والذي حطم مؤامرة الصمت الذي تحاول السلطات واجهزة دعايتها فرضة على ما يحدث من اجراءات تعسفية ضد الادباء العرب في اسرائيل، والتي تشكل جزء من اجراءات القمع والارهاب المتبعة ضد العرب بشكل عام، وضد جميع مقاومي العدوان والاحتلال، والدعاة الحقيقيين للسلام القائم على العدل.

في "هآرتس" (٨ إيار ٦٩) شن احدهم ويدعى م. رام من تل ابيب، هجوما هستيريا لم يستهدف عاموس كينان وحده، بل تعداه

الي طبعا، والى الشاعرة فدوى طوقان "أكلة لحوم البشر" على حد قول "رام" هذا، الذي راح يكيل المديح للاحتلال ويعدد فضائله التي لا تحصى في المناطق المحتلة .. وبعد ان يتحداني سيادته بان اجرؤ على التصرف في " وطني الثاني" (الاتحاد السوفياتي) -كما يقول- بالشكل الذي اتصرف به هنا في اسرائيل، يختتم هجومه الخاطف بدعوة عاموس كينان الى الصمت، وافساح المجال "لمن هم افضل منه".

في ١٢ ايار نشرت الصحيفة نفسها هجوما مماثلا لموتور يدعى تسفي شيلوح (من هرتسليا)، يسخر فيه من "المناضل الشجاع عاموس كينان"، وينهال بالتقريع على المثقفين الذين "يحاولون زعزعة معنويات الشعب اليهودي في اسرائيل" ..و "زعزعة حقنا في امتلاك البلاد" .. و "تفنيد حربنا الدفاعية"، كما نجح بعض المثقفين في زعزعة ثقة الشعب الاميركي في الحرب التي فرضها عليه الفيتكونغ في فيتنام! .. بينما لا يريد الاميركيون ان يفرضوا على فيتنام نظاما استبداديا كما يحدث في تشيكوسلوفاكيا! .. وبهذا المنطق المريض يواصل هذا الموتور هجومه المحموم على الاخلاق الانسانية في ابسط اشكالها.

أما الذي كتبه يعقوب اورنشتاين في "دافار" (٥/١٥) فقد كان طرازاً آخر.

يفتتح حديثه بتصنيف "الدروز" الى جيدين وسيئين .. والسيئون "امثال كمال جنبلاط اللبناني وسميح القاسم الذي يعيش في دولة اسرائيل، يرون في اسرائيل كل الشر الموجود في الشرق الاوسط، وهم على استعداد لان يبذلوا كل ما في وسعهم لاستئصال "هذا السرطان" من منظر المنطقة. وقد ذكرت اسم سميح القاسم واسم

كمال جنبلاط على صعيد واحد، لان الاثنين، مع انهما ينشطان في بيئات مختلفة. يجمعهما طريق واحد-فكلاهما يستنزلان كل وحيهما من مصدر واحد، من موسكو. اللبناني يكتفي بميول يسارية، والاسرائيلي عضو في راكح، الذي لا حاجة بنا لتفسير نظرته الى اسرائيل وعلاقته بها. هذه الامور بسيطة للغاية، وواضحة معروفة للجميع بحيث لم اكن انوي ذكرها كما انني لم اكن لاقول ان الماء رطب والملح مالح".

ثم يشير اورنشتاين هذا الى ان عاموس كينان ارتكب خطأين شديدين من شأنهما ان يبلبلا الجمهور! .. الاول بالنسبة للرقابة والديوان والاعتقال، والثاني بالنسبة لقومية سميح القاسم.. " فهو ليس عربيا.. بل انه ليس مسلما .. فهو درزي". ويكرر القول ثانية "سميح القاسم ليس عربيا، وهو ليس-كما قلت-مسلما. واذا كان راغبا في الحرب من اجل افكار "فتح" فهذا شأنه الخاص. وهو يشن هذه الحرب ليس لانه يحس بالام شعبه، الام الشعب الدرزي، بل لانه يستمد وحيه من راكح، من موسكو".

لقد دار وما زال يدور، في اسرائيل وفي الاوساط اليهودية العالمية، حوار حول السؤال من هو اليهودي؟ وحول السؤال الاخر: هل يشكل اليهود قومية؟ ومن ثم هل يصح اعتبار الدين اساسا لتقرير القومية؟

ويبدو ان اورنشتاين هذا، من اولئك الذين يعانون من عقدة انعدام القومية، وهو يبحث عن قومية له في التعصب الديني، ويحاول-بوعي او بدون وعي- ان يفرض هذا المقياس الديني الخاطىء على العالم باسره ليبرر وضعه الخاص .. وما دام يدور في هذه الحلقة الضيقة من قصر النظر والجهل الذي قد يقود صاحبه الى

مواقع العقد الشوفينية القاتلة، فهذا شأنه الشخصي!.
واليكم هذه الحادثة ..

لعلكم تذكرون الكاتب البريطاني ارنولد ويسكر الذي زار البلاد بدعوة من وزارة الخارجية وقابلني خارج نطاق البرنامج الذي اعده له اصحاب الدعوة. في اعقاب الحديث الذي دار بيني وبين ويسكر، يبدو ان صورة اخرى تكونت لديه عن حقيقة الاوضاع الداخلية في اسرائيل (واحة الديمقراطية في الشرق الاوسط) .. وحين عاد الى لندن ارسل الى "هآرتس" رسالة يعرب فيها عن معارضته لاوامر الاعتقال والاقامة الجبرية واثبات الوجود والاعتقال المنزلي والرقابة المفروضة علي (وعلى جميع رفاقي وزملائي الشعراء والادباء العرب المقاومين للصهيونية والاضطهاد القومي).

ويبدو ان المسؤولين اغضبتهم جدا هذه الرسالة التي نشرتها "هآرتس"، واخذوا يتحينون الفرص لاقناع اولئك الذين يشككون في جدوى اجراءاتهم وانظمتهم، بان الامن رائدهم. وسلامة الجمهور سلاحهم.

على كل حال، قريبا سامثل امام المحكمة .. وانتم جميعا مدعوون للمشاهدة ولاصدار حكمكم الخاص.. وحتى ذلك الحين، وحتى اللحظة الاخيرة من عمر الطاغوت الاخير: منهم العنف ومنا العنفوان!